مجلة الرائد

العدد : ٢١٤ الموافق في رجب ١٤٢٠ هجري ١١ / ١٩٩٩ ميلادي

عنوان المقال : العمل الخيري بين العاطفة والتعقل	بقلم : رشيد أبو أسامة

عن أبي هُرَيْرَةَ ﷺ قَالَ : سمعت رَسُول اللَّهِ صَلَّى اللَّهم عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول : " **لأَنْ يَحْتَزِمَ أَحَدُكُمْ حُزْمَةً مِنْ حَطَبٍ فَيَحْمِلَهَا عَلَى ظَهْرِهِ فَيَبِيعَهَا خَيْرٌ لَهُ مِنْ أَنْ يَسْأَلَ رَجُلاً يُعْطِيهِ أَوْ يَمْنَعُهُ** ".

مدخل : تعرف ساحة العمل الإسلامي في كل بقاع الأرض، تحركا نشطا للمسلمين في مجال العمل الخيري، من خلال المؤسسات العامة الفاعلة في المجتمع، أو من خلال العمل الفردي. ويكتسي هذا العمل صورا مختلفة، مثل جمع المساعدات المالية أو العينية أو الغذائية لتقديمها إلى المحتاجين، أو تقديم الخدمات الطبية والتعليمية المجانية، أو غيرها. ولا يمكن لأحد أن ينكر ما لهذا العمل من فضل وأجر وانفتاح ودعوة ، كما لا يمكن إنكار وجود المعوزين المتوقفين على تلك المعونات، في عالمنا الإسلامي المضطرب الذي يعرف أكبر نسبة من اللاجئين والمهجرين والمنكوبين، بسب الحروب أو الكوارث أو غيرها.

العمل الخيري في الظروف العادية

غير أننا في هذه المقالة سنتحدث عن العمل الخيري الذي يمارس في الظروف العادية؛ سواء في بلاد المسلمين أو في الغرب. وفي هذا الإطار بالذات وخاصة في البلاد الإسلامية نلاحظ أنه، إذا استثنينا بعض حالات المعوزين الذين لا حول لهم ولا قوة، أو بعض الحالات القاهرة المستعجلة ـ مثل العمليات الجراحية المكلفة وغيرها ـ فلا يمكننا أن نتجاهل أن العمل الخيري بمفهومه المتمثل في تقديم الإعانة المباشرة، لا يساهم إلا في تكريس مجتمع المساعفة والتواكل والاستهلاك السلبي، ليقضي في الوقت نفسه على معاني الأنفة وعزة النفس الضروريتين لكل نهضة، والتي كانت هي الأصل في المجتمع الذي بناه الإسلام. فالإنسان الذي يريده الإسلام هو الإنسان المنتج الذي يتحمل مسئوليته ويأبى أن تكون يده هي السفلى، لأن اليد السفلى ليست مجرد حركة، وإنما استعداد نفسي يرضى بالمهانة و الصغار؛ فكم من متسول جمع من الأموال ما يغنيه عن التسول ويعفه عن الاستعطاف، ورغم ذلك لم يتخل عن التسول الذي تحول بالنسبة إليه إلى مهنة، وعن الاستعطاف الذي صار بالنسبة إليه سجية، حتى أن الكثير من هؤلاء صاروا يسافرون إلى ديار الغرب أو إلى المملكة العربية السعودية في مواسم معينة، ليتسولوا في المساجد مستعملين شتى أنواع التمويه والاحتيال لاستغلال عواطف الناس الطيبين. و الأدهى والأمر، هو أن هؤلاء لن يتمكنوا من الاستفادة مما جمعوه من مال، ولا من إظهار النعمة عليهم

لأنهم سيفقدون بذلك صفة المحتاج التي كانت تمكنهم من الاستجداء. وبالتالي قد يعيشون طول حياتهم في البؤس ـ مع ما يترتب على ذلك من تجميد تلك الأموال وعدم إدماجها في الدورة الاقتصادية للمجتمع. والكثير ممن يصحبون معهم أبناءهم الصغار، أو يوجهونهم للتسول، يورثونهم هذه الخصال الدميمة منذ الصبا. ومن هانت عليه نفسه بهذا الشكل، لن يتورع عن سلوك أي طريق يمكنه من تحقيق مراده؛ كما أن هذا النوع من الناس، الذين ربوا على الصَّغار والدونية قد يُجندون من طرف أية جهة داخلية أو خارجية ـ وقد تكون الصهيونية ـ لضرب مصالح بلادهم وشعوبهم لقاء مكافأة مادية زائلة. ومجتمع تنعدم فيه خصال الشهامة والأنفة والعزة والصدق مع الله والنفس، لا يمكنه أن ينهض، لأن النهضة تبدأ في النفوس قبل أن تنجز على الأرض.

العمل الخيري توجيه للإنتاج

لذا يجب مقاربة العمل الخيري بالصيغة التي وجه إليها رسول الله صلى الله عليه وسلم عندما قال معلما أصحابه معاني الشهامة والكرامة:" لَأَنْ يَحْتَزِمَ أَحَدُكُمْ حُزْمَةً مِنْ حَطَبٍ فَيَحْمِلَهَا عَلَى ظَهْرِهِ فَيَبِيعَهَا خَيْرٌ لَهُ مِنْ أَنْ يَسْأَلَ رَجُلًا يُعْطِيهِ أَوْ يَمْنَعُهُ "

فالعمل الخيري الناضج هو الذي يعمل على تحويل المسلم المحتاج إلى منتج متوكل على الله؛ قد يقنع بالقليل، لكنه يأبى أن يتنازل عن كرامته ليحول إلى متسول ذليل، ولو جلب له ذلك الكثير.

فعندما نقارب الموضوع من هذا الباب، وخاصة في البلاد الإسلامية ، نجد أنفسنا أمام مجال كبير للفعل، ومستويات عدة من المستهدفين:

المستوى الأول : هو الفقير العادي ـ رجلا كان أم امرأة ـ والذي بوسعه أن يشتغل إذا توفرت لديه الوسائل الأولى للإنتاج من أدوات أو سلع؛ والأصل ألا تكون هذه الوسائل باهظة الثمن؛ فلقد تمت في بنغلادش تجربة، تمثلت في اقتناء هاتف محمول لامرأة تعيش في مناطق نائية بالريف حيث لا ماء ولا كهرباء، ليتحول بذلك بيتها إلى مكتب عمومي للخدمات الهاتفية، حيث يلجأ إليها كل من أراد الاتصال بذويه القاطنين بالمدن البعيدة؛ وجلب لها ذلك من الأرباح ما مكنها من أداء ثمن الهاتف الذي كانت قد اقتنته قرضا، كما مكنها من توفير ما تعول به ذويها. غير أن المؤسف هو أن هذه التجربة كانت بمبادرة أجنبية؛ تمكن للأجانب من الوصول إلى أعماق مجتمعاتنا لمعرفتنا من الداخل، مما يتيح لهم فرصة وضع مختلف خططهم الاستراتيجية التي تستهدف بلادنا؛ بل وقد يجنون من وراء ذلك أرباحا مالية هامة عندما يعتمدون أسلوب القروض الصغيرة التي غالبا ما تمنح بفوائد عالية وخاصة في الدول الفقيرة

المحتاجة[1].

فيمكن إغناء هذا الفقير العادي بتوفير وسائل الإنتاج الأولية له؛ إما عن طريق العطاء، أو القرض الذي سيمكن من استرجاع المال لمساعدة محتاج آخر، أو عن طريق المشاركة في الربح بنسبة بسيطة، وقد توجد له الصيغة الشرعية والقانونية؛ أو ما إلى ذلك من أشكال التعاقد، شريطة أن تكون التكاليف المالية بسيطة، يمكن توفيرها بسهولة. فرأس مال هذا العمل الخيري يجب أن يتمثل بالأساس في قدرته على ابتكار أفكار تكون منطلقا لمشاريع اقتصادية بسيطة، غير مكلفة ومجدية، بحيث تصير قضية المال مسألة ثانوية .

المستوى الثاني : ويتمثل في المتعلم المتوسط الذي لم يحصل على شهادة عليا، والذي كان ينتظر الوظيفة من الدولة، الأمر الذي أضحى مستعصيا في كثير من الدول. فهذا يمكن مثلا مساعدته مباشرة أو عن طريق جهات معينة يمكن الاتصال بها على التعلم السريع لحرفة، مثل استعمال سيارة أجرة غيرها. وهنا يمكن لجمعيات الحي أن تقوم بدور مهم، أولا لأنها ستتعامل مع أهل الحي، وبالتالي ستكون أقدر على تمييز من يستحق المساعدة ممن يمتهن الاحتياج، ثم إذا ما وسعت نشاطها لإنشاء مدرسة أو رياض للأطفال، أو غيرها من المؤسسات و التعاونيات ، فإنها ستتمكن من توفير الشغل لعدد من المتعلمين. وتجدر الإشارة هنا إلى أهمية المشروعات التي لا تشتغل للربح المادي، إلا ما كان بسيطا لتغطية بعض التكاليف الضرورية، في توفير الشغل للعاطلين. بحيث يمكن التفكير في مشاريع قد تكون ضخمة، مثل بناء دور للسكن أو محلات تجارية، بحيث يكون الربح الأساسي للمشروع هو توفير العمل للمقاول و المهندسين أولا، ثم لبائع مواد البناء، ولليد العاملة. فعندما لا تستهدف هذه المشاريع الربح، ستكون تكاليف إنتاجها في متناول الكثير من الناس، مما يمنحها أكثر من غيرها فرصة الخروج للوجود.

هذه مجرد أمثلة ، وقد يبتكر ما هو أفضل وانسب منها.

المستوى الثالث : فئة المهنيين الذين بوسعهم أن ينشئوا نوعا من التعاونيات المهنية المتكاملة التي تمكنهم من الشغل لأنفسهم وتشغيل غيرهم، وخاصة إذا تم ذلك من خلال جمعية لا تستهدف الربح بقدر ما تستهدف الشغل .

المستوى الرابع : أصحاب الشهادات العليا العاطلون الذين يجب العمل على جعلهم يتجاوزون ما

---

[1] تمنح القروض للدول المصنعة بفائدة تتراوح بين ٣% و٥% في حين تضطر دول مثل البرازيل و الأرجنتين والمكسيك وتايلاند لأداء فوائد تتراوح بين ١٠ % إلى ١٥ % . ــ حسب لوموند ديبلوماتيك لشهر ١٩٩٩/٩

ربوا عليه في المدرسة والبيت من عقلية انتظارية، ترقب ما ستفعل بهم الدولة، حيث يجب أن تتشكل منهم ومن غيرهم خلية للبحث وتوليد الأفكار تمكن من ابتكار أشكال جديدة من الإنتاج والخدمات المتخصصة، مثل طبيب البادية المتجول (فقد يلاقي طبيب و ممرض ومختبر تحليلات صغير وصيدلية مناسبة على متن سيارة متجولة نجاحا كبيرا في البادية، يستفيد القروي بتوفير تكاليف السفر إلى المدينة كما سيستفيد الطبيب من فرص العمل، و خاصة إذا كان معفى من الضرائب وكان سعر البادية منخفضاً) .

المهم أن يتخذ العمل الخيري منحى تكون فيه الجمعية الخيرية عبارة عن مكتب للدراسات والاستشارة والتوجيه وابتكار الأفكار، أكثر مما هي مؤسسة لمنح المعونات المادية المباشرة. والهدف من وراء هذا كله، هو الحيلولة دون الانسياق وراء الحلول السهلة ـ التي قد تريح الضمير، إن لم توظف لأغراض سياسية في بعض الأحيان ـ المتمثلة في تقديم المساعدات المباشرة التي تبقي المستفيد عالة على المجتمع، مرتبطا بالجهة المانحة، مع ما يترتب على ذلك من تكريس لنفسية المهانة والصغار، للعودة إلى المعاني التي أرساها رسول الله صلى الله عليه وسلم عنما وجه الذي طلب منه صدقة أن يبيع ما في بيته من أثاث، ثم يعول أهله بنصف الثمن ويخصص النصف الثاني للتجارة.

إن الوصول إلى اقتراحات إبداعية بهذا الخصوص يحتاج إلى مدارسة الموضوع من طرف لجنة متعددة التخصصات، القانونية والمالية والفنية، لطرح بديل يرفع من مستوى الأمة، ويحررها من التبعية التي غالبا ما يستتبعها التوظيف.